بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد خاتم أنبيائه ورسله

تاقت نفسى لأن أكون معلماً ، فاتخذت فى حياتى العلمية الطريق التي توصلنى إلى هذا الغرض ، وما هو إلا أن حصلت على إجازة في التدريس من مدرسة المعلمين الخديوية (المعلمين السلطانيه) وكان أستاذ التاريخ فيها حضرة صاحب العزة أحمد بك صالح . هذا الأستاذ يدرس التاريخ على نحو يباين المألوف فى معاهد التعليم الأخري فى مصر ، فهو يسهب فى الشرح ويختصر فى المذكرات ، فتطلعت نفسى منذ ذلك الحين إلى درس التاريخ ، وأخذت بعد الخروج من المدرسة أبحث عن معهد أستطيع فيه أن أوافي النفس بما كانت تتطلع إليه ، فلم أجد فى القطر مكانا أتمكن فيه من الدرس على طريقة أوسع سوى الجامعة المصرية ، فانتسبت إليها فى أكتوبر سنة ١٩١٥ وما كدت أسمع فيها بعض المحاضرات فى المواد المختلفة حتى رأيت أنى قد وجدت ضالتى التى كنت أنشدها ، وكأن الجامعة بذلك قربتنى مرة أخرى من العلم وتلقيه

لذلك أتقدم إلى الأستاذ أحمد بك بجزيل الشكر ووافر الثناء ، فلولاه ولولا طريقته التي حببت إلىّ التاريخ لما تشرفت بأن أقوم اليوم هذا المقام ، ولما كان مثلى إلا كمثل غيرى من كثير من الشبان الذين إذا ما غادروا

جدران مدارسهم وفتح الله عليهم بابا للحياة غير المدرسية ، اتخذوا (الملاهى) أندية لهم ، بعيدين عن العلم وأهله وذويه ، فكأن الأستاذ بطريقته هذه قد حبب إلىّ الاسترسال في طلب العلم وانهاج طريق يخالف طريق أكثر الشبان فى بلدنا

قد يتبادر إلى بعض من يسمع حديثى هذا أنى آخذ على الأستاذ قصر مذكراته فى دروسه . كلا فان الذى فعله الأستاذ إنما كان رغبة منه فى تقصير الوقت على الطلبة إذا ما أرادوا تذكر دروسهم

قضيت بالجامعة المدة التي أوجبها القانون على المنتسبين إليها وانتهيت من الامتحانات الخصوصية فى مدة ثلاث السنوات الأولى ، ثم انتسبت فى السنة الرابعة تنفيذاً لما يراه ذلك القانون دون أن أقر رعلى نفسى الحضور لتلقى الدروس إلا لمجرد طلب المزيد

وفى اعتقادى أنه لو جعلت الجامعة هذه السنة الرابعة خاصة بتلقي محاضرات فيما يسمونه فلسفة التاريخ ، أو بعبارة أخرى ابحاثا تاريخية خاصة لطلبة الدكتوراه ، يقوم فيها حضرات الأساتذة بمناقشة الطلبة مناقشة تغرس فيهم حب البحث الذي يوصلهم إلى الاستنتاج بما يقرأون ، لسهل على الطلبة المتقدمين لهذا الامتحان كتابة رسائلهم فى موضوعاتهم المختلفة

أمضيت السنة الرابعة وأنا لا أدرى فى أي موضوع أكتب رسالتى ، فكنت أختلف إلى الجامعة أسمع فيها حضرات الأساتذة على حسب عادتى من جهة ، ولعلى أقف على موضوع أكتب فيه من جهة أخرى ، فانتهى عزمى إلى الكتابة في (صلاح الدين يوسف بن ايوب) بعد أن مر أمام

المخيلة كثير من الموضوعات ، شأن كل من يريد اختيار واحد من كثير

والذى حبب إلىّ هذا الرجل واستقصاء أمره ، ما قام به من الأعمال الجليلة في وقت انحلت فيه العزائم وقصرت الهمم إلا فيما يعود على النفس من المنافع والمزايا الخاصة ، وكذلك أعماله الباهرة التي خدمت الشرق والشرقيين أكبر خدمة فى التاريخ ، ذلك انه صد أوروبا فى جاهليتها الأولى وهى على وشك أن تجتاح الشرق بهمجيتها هذه ، فأبعد شرها عن الشرق وأهله . على أن ما أداه من الخدمة الدينية لا تقل عن هذه ، فقد قضى على التشيع الذى انتشر في مصر وما جاورها من الأقاليم ، فقضى على الخلافة الفاطمية ووضع حداً لتلك الفوضى التي كانت تقوم فى وادى النيل ، وكون قوة إسلامية ارتعدت منها فرائص أوروبا كلها

أخذت العدة لذلك منذ حوادث مارس سنة ١٩٠٩ ، فجمعت طائفة من الكتب العربية أستأنس بها وأسترشد فيما عسانى أن أقول ، فوجدت أكثرها يكاد يتطابق في اللفظ والمعنى مما يجعل الأنسان يعتقد أن المؤلفين جميعاً قد استقوا من مصدر واحد فيما كتبوا ، ويظهر لى أن التزام أكثر مؤرخى العرب سرد الحوادث سنة بعد أخرى ، جعلهم لا يعنون كثيراً بالبحث فى الحوادث وأسبابها ، فاقتصروا على سردها وأسماء من قاموا بها ، فترى ابن الأثير فى الكامل وأبا الفدا في المختصر فى اخبار البشر ، وميخائيل بك شاروبيم فى الكافي وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين قد ساروا على هذا النمط . ولو كتب ابن خلدون فى العبر باستقصاء أطول لجاء كتابه أحسن مما هو الآن . اما صاحب كتاب الروضتين فقد كانت مهمته أن يجمع

الروايات المتعددة من غير أن يبدى عناية خاصة بواحدة منها ومناقشتها ، أما العماد فى الفتح القسى فلا يختلف عن هؤلاء إلا بتفصيل أكثر ، ويزيد عنهم بعنايته بتزويق عبارة الكتاب وجعلها إلى الموضوعات الأنشائية المسجوعة أقرب منها إلى سرد الحوادث التاريخية . ولا ننسى أن العماد كان وزير صلاح الدين ، وقد علمتنا الأيام مقدار مبالغات المتصلين بالسلاطين والملوك

أما كتب الأفرنج فقد كتب أكثرها عن صلاح الدين في سياق حديثها عن الحروب الصليبية ولم يتصد للكتابة على صلاح الدين منفرداً فى اللغة الأنجليزية إلا استانلى لين پول على مقدار ما وصل إليه علمى

وعدم معرفتى بلغات أجنبية أخرى غير الأنجليزية (وان كنت أعرف مقدارا من الفرنسية لا يمكننى من درس كتب التاريخ المكتوبة بها) يمنعنى أن أتعرض لما كتب في هذه الكتب عن صلاح الدين. وفى هذا المقام أتقدم إلى أولياء الأمر فى الجامعة راجيا أن يدخلوا فيها درس غير الفرنسية والأنجليزية من اللغات الأجنبية الحية . على أن هذا الامر قد أدركته مدارس أوروبا لا جامعاتها فختمت مدارس إنجلترا مثلا على طالبى التقدم لامتحان (المتركيوليشن) أن يعرفوا لغتين غير اللغة الأنجليزية مع أن هذه الشهادة ليست إلا فى مرتبة الشهادة الدراسية الثانوية عندنا

والحق ان الذى يراد إعداده لدراسة الآداب وفروعها أولى بأن يعرف عدة لغات أجنبية راقية ليتمكن من الاطلاع على آراء العلماء المختلفى الجنسيات واللغات والنزعات في كل أمة متحضرة ، فالأنجليزى ينظر

إلى الحروب الصليبية وأبطالها بنظر يختلف كثيراً عن نظر الفرنسى لها وهما معاً يخالفان ما يراه الألمانى والأيتالى وهكذا

وفى اعتقادى أن ما كتبه ابن الأثير وأبو الفداء ومن سار على شاكلتهما في علم التاريخ لم يقصدوا به سوى أن يلم المطلع على ما كتبوا بأحوال العالم على وجه الاختصار ، ولو أن ابن الأثير وابن خلدون وأباشامة وغيرهم وضعوا أمام أعينهم درس الحوادث ومناقشتها مناقشة الناقد البصير ، لكانت أعمالهم تقصر عن استيفاء الموضوعات التى كتبوا فيها ، لكنهم لو عمدوا إلى الحوادث الهامة وكتبوها على النحو الذى أردت لكانوا قد أدوا إلى العالم العربى خدمة تذكر فتشكر

تكثر الشكوى الآن من ندرة الكتب العربية فى الموضوعات المختلفة حسب الأسلوب الحديث ، وهى شكوى قد تقوم على شىء من الحق ، على أن الذى يدهشنى من أمرها أن ممن يشكون ويتألمون طائفة من الشبان الذين ذهبوا إلى أوروبا وتعلموا فيها ووقفوا على الحركة العلمية هناك . يرون هذه القلة نقصاً كبيراً في حياتنا العلمية ولكنهم لا يعملون على سد هذا النقص . فلماذا إذن يشكون ويتألمون ؟ ألأن الألفاظ العربية التى تساعد على إدخال النظام الحديث فى الكتابة قليلة كما يدعيه بعض حضراتهم ؟ لا ، فقد تبين أن اللغة العربية من أغنى اللغات بألفاظها ومعانيها ، وباب التعريب والاشتقاق واستعمال المجاز واسع مفتوح . أم لان حضراتهم لم يوفقوا بعد الى سد هذا النقص الذى يتألمون مع المتألمين له ؟

والذى أراه انهم لم يتخذوا لهم ناديا يلم شعثهم ، ويجمع كلمتهم ، ولو

أنهم كونوا لهم جماعة يعملون فيها معاً واشتغل كل بما تخصص فيه من العلوم والفنون ، لظهر فى مصر من الكتب ما لا يبقى معه موضع لتلك الشكوى ، لا سيما اذا لم يقصروا همهم على الكتب المدرسية ، ولم يشغلهم رواجها أو كسادها ، فان الذى ينقصنا قبل كل شىء إنما هى العناية بالعلم لذاته لا لما ينتج عنه من فائدة مادية أو معنوية ، وما كان للأمم أن تنهض إلا إذا قام على مصالحها العلمية نفر من اليقظين الذين وقفوا أنفسهم على ذلك لا يرجون من ورائه إلا أن يقال عنهم إنهم فهموا واجبهم فأدوه وقاموا به ، ومن لهذه اليقظة غير الشبان المتعلمين

على أني لا أقيل أكثر الذين لم يذهبوا الى مدارس أوروبا من بعض اللوم ، فوطنهم يناديهم كما ينادى السابقين على السواء ، فهل أجابوه ؟ كلا ، يدل على ذلك كثرة الملاهى وانكباب الناس عليها فى مدننا ، وعدم تقدم الحركة العلمية وسرعة انتشارها . لا أرى سبباً لهذا الاقعودنا واستنامتنا إلى الكسل والراحة ، أو إلى اللهو واللعب منذ حصولنا على الشهادات النهائية والوصول إلى باب للرزق

لا يقوم العلم إلا برجال ينصرونه ، ولا تقوى أمة سلكت سبيل الغواية والخمول وتركت حياة الفضيلة والجد . فعلى الذين علموا أن يعلموا ، وليكن من غرضنا نشر العلوم بلغتنا حتى تقوى ، فتقوى الأمة ، ولننزع من نفوسنا حب المال إلى هذا الحد الذى أفضى بنا إلى خمول الذهن ، والأعراض عما لا يكسب المال . لنعمل حتى نعيد إلى الأمة العربية مجدها القديم

وسمعتها العلمية الماضية أيام الدولة العباسية في عصرها الذهبي

إخترت صلاح الدين موضوعاً لهذه الرسالة ولكني قبل أن أشرع في تفصيل حياته مضطر إلى أن أقدم بين يدى ذلك فصلين لا بد منهما، ألأول في الدولة العباسية والثانى في الحروب الصليبية

وأنا ارجو أن أكون قد وفقت فى هذا البحث إلى شيء من النفع ولو قليل

احمد بيلى

١٨ رجب سنة ١٣٣٨

٧ ابريل سنة ١٩٢٠

obeikandl.com